الصمت في الخطاب القصصي عند عبد الله أبو هيف

د/ عمار بشيري*[1]
[1] جامعة عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة (الجزائر)

ملخص:

إذا كان الحوار قد نال اهتمام النقّاد الذين اشتغلوا على الرواية والأعمال السردية عموما، فتناولوا تقسيماته وأنواعه ورمزيته وجمالياته ،فإن الصمت بدوره يلفت الانتباه بما احتواه من العناصر نفسها ،وزاد على ذلك ما يتمظهر به من الغموض والفراغ اللذين يقودان إلى التأويل الفني للكشف عن دلالاته وإشاراته. ولعل الخطاب القصصيعند عبد الله أبو هيف يساعدنا على الكشف عن ذلك، بوصفه يحتل الصمت منه مساحة لا بأس بها من مقاطع متعددة منتصوصه.

الكلمات المفتاحية : الصمت، الخطاب، النص القصصي، عبد الله أبو هيف.

Abstract:

The critics who approached the novel and the narrative works, they were more interested in dialogue through its subdivisions, types and aesthetic aspects. Thus, silence, in turn, attracts attention, including being Submerged by the same elements, and more by its mystery and emptiness, all of which lead to interpretation to detect its Meanings and its allusions.

Perhaps AbdullahAbu Heif's narrative discourse helps us to reveal this, as silence from him occupies a good amount of multiple passages of his texts.

Keywords: silence, speech, Storytelling text, Abdullah Abu Heif.

*bechiriammar@gmail.com

1- مقدمة

يحتل موضوع الصمت أهمية معتبرة لعلاقته المتينة باللغة مكتوبة كانت أم منطوقة، فهو يسبق الكلام ويعقبه ويتخلله ففيه إشكال لوقوعه خارج الحيز اللغوي.

ولماكانت القصة منجزا لغويا فإن الصمت يظهر فيها بأشكال متنوعة، وتميل بعض القصص إلى الصمت رغبة من ورائه إلى تحقيق غايات فنية، ومن الأكيد أن البحث في قضية الصمت ومنه معرفة خصائصه ووظائفه يجعل عالم السرد (القصة) أكثر إدراكا.

ويرى بعض الباحثين جدية الدراسات المتعلقة بقضية الصمت لاسيما في السرديات الغربية والرواية على وجه الخصوص، كدراسة "هافال" (Heuvel,1985, p 75) ، وكذا ما جاء في مؤلفات "كامو" (Albert Camus) " الغريب" "L'étranger" على سبيل المثال.

اخترت "هواجس غير منتهية"، وهي المجموعة القصصية الثالثة للناقد والقاص عبد الله أبو هيف[1]، والتي احتوت على تسع عشرة قصة في مائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، والملحوظ أن الصمت احتل مساحة لا بأس بها من مقاطع متعددة من نصوصه القصصية.

وقد اكتفيت ببعض منها، لأن المقام لا يتسع لرصد كل قصصه، فهو عمل قد يكون مستقبلا مستقلا بدراسة موسعة أكثر.

وسبب اختياري هذا الخطاب السردي (القصة) لأهميته وجودته وغناه فهو عبارة عن معدن قابل للدراسة من جوانب متعددة(محمد الباردي، 2004، ص ص 225، 193) بقطع النظر عن حقيقة جانبه الأدبي.

وقبل تناول ظاهرة الصمت عند أبو هيف منخلال نصوص "هواجس غير منتهية" جدير بنا أن نطّلع على مفهوم الصمت في معاجم اللغة، وكذا عند المقرئين والبلاغيينواللسانيين وعلماء الخطاب والسينمائيين وعند المشتغلين بالمسرح ، ثم التطرق إلى التعريف الاصطلاحي كاستنتاج لما سبق.

أ ـعبد الله أبو هيف من مواليد 1945م بالرقة (سوريا)، كان يميل إلى كتابة القصة في بداية إبداعاته، ثم مال إلى النقد، فكتب في مجالات أدبية متنوعة، له ما يربو على الأربعين مؤلفا موزعا بين النقد الأدبي والمسرحي والسينمائي وأدب الأطفال، وكذا كتب في الفكر والتنمية الاجتماعية. توفي عام 2017م بعد مرض عضال.

ب ـ سيلزماسم (عبد الله أبوهيف) هذه الصورة الإعرابية أينما ورد في البحث، ولا يخضع للتحولات الإعرابية حين يقع منصوبا أو مجرورا، بوصفه اسم علم يعامل معاملة الاسم الثابت.

أولا ـ في مفهوم الصّمت وأسراره:

أ ـ الصمت في المعاجم العربية:

تعددت معاني الصمت في المعجم العربي، فقد ورد في لسان العرب: صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا وصُمْتًا وصُمُوتًا وصُمَاتًا.

وأَصْمَتَ : أطَالَ السكوت.

والتصميتُ: التسكيتُ والسكوتُ(ابن منظور،1997ص 68).

والصُّمتةُ مِثْلُ السُّكْتةِ. ما أُصْمِتَ به، أي ما أُسْكِتَ به، ومالُه صُمْتةٌ لعياله: أي ما يطعمهم فيصمتهم به(الجوهري، 1407هـ-1987م، ص256).

ويُقال للون البهيم: مُصْمَتٌ. وفرس مُصَمَّتٌ، وخيلٌ مُصْمَتَاتٌ إذا لم يكن فيها شِيَةٌ وكانت بُهْماً. وفي الصحاح: المُصْمَتُ من الخيل: البهيم، أيْ: ما كان لا يخالطُ لونَهُ لونٌ آخر(الجوهري،1407هـ-1987م،ص257 والزبيدي،1987،ص596).

والحُرُوف المُصْمَتة: وهي غير حروف الذَّلاقَةِ الستةِ (ينظر: ابن منظور،ص110). وسميت بالمُصْمَتة؛ لأنّها صُمِتَ عنْهَا أنْ يُبنى منها كلمةٌ رباعيةُ أو خماسيةُ مُعّراة من حروف الذلاقةِ(الأزهري،2000، ص334).

ب ـ الصمت عند المقرئين:

يعبّر عن الصمت لدى مقرئي القرآن بالسكت، وهو قطع الصوت عن الكلمة زمنا يسيرا من غير تنفس، ويتوزع على أربعة مواضع من القرآن الكريم وجوبا. (ابن الجزري، ص426).

وربما كان ذلك للإبانة عن معنى السياق للآية، كما في قول الله تعالى في سورة الكهف: " عِوَجًا قَيِّمًا " فالصمت يكون على ألف (عِوَجًا) ثم يواصل (قَيِّمًا)، إذْإن عوجا نقيض قيّم، فيكون (قَيِّمًا) مفعولا به لفعل محذوف تقديره "يجعل".

فكلام الله قيّم لا عوج فيه، فأدى السكت اليسير وظيفة إبلاغية للمعنى المراد.

ج ـ الصمت عند علماء اللغة والبلاغة:

توسعت بحوث علماء اللغة والبلاغة العرب القدامى حول موضوع الصمت، وقد اصطلحوا عليه "بالحذف"، إذ أولوه عناية كبيرة لأهميته في البيان والبلاغة، فهو باب البلاغة وقطب الرحى فيها وعليه مدار الإعجاز، لاسيما في

كلام الله (الجرجاني، 1389 هـ- 1969 م،ص 112)، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق"(ابن هشام، 1423 هـ - 2002 م، ص317 ومابعدها).

وتطرق علماء اللغة إلى أسرار الحذف ومقداره وموضعه ودواعيه إذ أوضح ابن هشام الأنصاري أن الحذف يشمل الأدوات مثل الواو والفاء .. والمبتدأ و الخبر وجملة القسم وجواب القسم وجملة الشرط وجواب الشرط..(ابن هشام، ص321.وسيبويه، 1988، ص141).

وكانت نظرة علماء اللغة والبلاغة من منظور الإبلاغ والإبانة ومدى قدرته على ذلك أي الإبانة من النطق واختلفت نظرتهم إلى الصمت والحكم عليه من موضع إلى آخر، كمدح أحدهم الصمت في موضع وذمه في موضع آخر وذلك حسب ما يقتضي مقام القول وحالة المتكلِم والمتكلَم.

ويظهر أن علماء البلاغة العربية يميلون أكثر إلى السكوت والإفصاح إلى بلاغة الإيجاز، فمثلا "ابن المقفع" عدّ الصمت من البلاغة مقرا بقدرته على الإبانة والتعبير عن المقاصد، فقد قال: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت (...) ومنها ما يكون جوابا"(الجاحظ، ص 166).

والجاحظ يحبذ الصمت حينا والنطق أحيانا حسب مقام الكلام: " واعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته"(الجاحظ، 1991، ص 113).

ومن العرب ومن هو أميل إلى الصمت منه إلى النطق، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت". رواه البخاري ومسلم.كما فضل عجز الإبانة في حال السكوت على عجز الإبلاغ في حال النطق "حي صامت خير من حي ناطق"، فعيْب الساكت خفي وعيْب الناطق جلي. وكره الكلام إذا طال فالحاجة إليه تنتفي "الكلام يشبع منه كما يشبع من الطعام"(التميمي، 1981، ص67).

ومنه "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب".

فالصمت لا محالة مرتبط بالنطق، فالبحث في الصمت يفضي حتما إلى البحث في النطق، وللإشارة فإن المتصوفة ينكرون وجود الصمت فـ" الصمت محال" (ابن عربي، ص180)في رأيهم.

وليفهم ما للصمت من معنى، فقد قالت العرب قديما:" من لم يسمع كلام الصمت، ولم يفهم عبارة الجامد فليس بفطن" (الناصري، ص255).

أما الدراسات الحديثة فقد أولت الصمت مكانة بارزة من خلال آراء متميزة ومتعمقة.

د ـ الصمت عنـد اللسانييـن:

إذا كانت اللسانيات ترتكز في دراسة اللغة على اللفظة والجملة، فبعض اتجاهاتها المستفيدة من العلوم الأخرى تعتني باللفظة والجملة والخطاب معا.

وهذا ما تناولته بالدراسة اللسانية "أوروكيوني" (Orecchioni)(Orecchioni1986, P 39, P 93, p 164, p 250,)، ولا ضرر في ذلك إذْ اللفظة وما يطرأ عليها هي جزء من الخطاب، فلا مانع من الانتفاع بما ذهبت إليه "أوروكيوني" وغيرها ممن ركز على الخطاب في حد ذاته.

فهذه الباحثة توغلت أكثر في مكنونات الخطاب، فهي تهتم للضمني (implicite) والكناية (trope)، والاستعارة (Métaphore) والمعاني المهمتة (les sous-entendus) في الجملة (Orecchioni,p39).

هـ ـ الصمت عند علماء الخطاب السردي:

ولم يُعْن النظار في السرد بقضية الصمت عناية شاملة، فاقتصرت بحوثهم في غالب الأحيان على علاقة الصمت بالزمن من الجهة التي تجعل الأحداث تسرع، فسرعة الأحداث تبلغ أقصاها في الإضمار (ellipse) الذي يكون بإسقاط جزء من الحكاية في النص(الخبو، ص135). ومما هو أيضا من قبيل الصمت في النص السردي ما يكون في وجهات النظر أو ما يسميه "جينات" تبئيرا من حجب المعلومات عن القارئ، كما هو الشأن في التبئير الخارجي (Focalisationexterne) الذي يكتفي فيه الراوي بذكر ما يظهر من أحوال ويسكت عما وراءها من أشياء، وقد يمتنع الراوي أحيانا عن البوح في نقل كل التفاصيل كما في التبئير الصفري، عند ذكر المعلومات، كما يسمي "جينات"ذلك حجبا سرديا (paralipse)(Genette,1972,pp 129,130) .

قد يكون غياب نظرية متكاملة تدرس موضوع الصمت فإنه يمكن الانتفاع بكل ماله صلة في موضوع الصمت سواء ما كان في مجال اللغة والبلاغة وعلم القراءات واللسانيات والفكر عامة واستثماره في السرد لأنه منجز باللغة، واللغة متينة الصلة بالنطق من جهة، وبعدم البوح من ناحية ثانية.

ولعله الأجدر ههنا عرض مصطلح للصمت نتجاوز به التعريف اللغوي، فهو " عدم تحقق لعملية تلفظ يمكنها أو يجب عليها أن تكون في وضعية معينة"(Heuvel, p 67) فالصمت حسب "هافال" تلفظ غائب أو بالغياب (Un acteénonciatif absent) وهو خلاف النطق والكتابة المتمثلَيْن في الصوت والخط لا ينشئ ملفوظا لسانيا (un énoncé linguistique) وإنما يُدرك وجوده بعلامات في النص تشير إليه مثل الفراغ (vide) والغياب (Absence) والفجوة في الكتابة (interstices de l'écrit) وتخفيض حجم المقول...(Heuvel, p 72)

وممّا يجدر ذكره هنا أن بعض النصوص السردية الحديثة تتعمد الحذف وتكثر من الغياب والبياض والهدف من ذلك هو تحقيق وظائف سردية ربما يعجز القول المثبت في النص عن القيام بها على أحسن وجه.

والمفيد أن الصمت، بالنظر إلى اللغة هو وجود غائب يثبت حضوره بغيابه بيد أن وقوعه خارج اللغة لا يلغي صلته المتينة بها. فيغدو بذلك مكونا أساسيا للنص السردي يؤدي وظيفته كباقي المكونات المنجزة لغويا.

ونجد الراوي أو السارد يعبر عن الصمت بالفراغ أو الفجوات أو البياض أو الإخفاء أو السكوت حينا، وبذكر الصمت أو مشتقاته أو مدلولاته حينا آخر كما هو الشأن في قصة " هواجس غير منتهية" لعبد الله أبو هيف التي نريد إبراز الصمت فيها ودلالاته.

ومن ناحية أخرى فإن الصمت بوصفه مفهوما فلسفيا وجماليا، فقد يفرز لنا بناء لفظيا يشترك مع اللغة والفرد يشكل أنظمة مشتركة في عملية إنتاج المعنى(ناجي، 2011، ص41).

فهو قد يؤسس لبنية دالة فتأتي هذه البنية الدالة من خلال تقطيع المفردات الكلامية المتمثلة بالحركة والوقف والسكوت، فقد يلجأ المتحاور إلى الصمت، ويمكن له أن يفهم وهو صامت، فربما يكون الصمت أعمق دلالة من ثرثرة تغيّب المعنى وتعطّل الفهم، فالمتلقي ـ أحيانا ـ يحتاج إلى المعنى ليس من الكلمات فحسب وإنما من الفراغات الصامتة التي بينها، ومن الصمت عموما كلغة من لغات التوصيل الفني.

و ـ الصمت والمسرح:

الصَّمت في المسرح هو لحظة دينامية متفجرة بالحركة شأنه شأن الكلام من حيث عملية البناء الدرامي وقد يكون بديلاً عن الكلام في المواقف التي يكون على الكاتب الروائي والمسرحي رسم بناء درامي موازٍ للبناء الحواري الكلامي، وعلى هذا الأساس يكون الصَّمت مطلباً متعدد المستويات والأهداف الدرامية في منظومة الحوار الذي تنطق به شخصية أو أكثر من الشخصيات المسرحية، ولمّا كان الصَّمت حواراً غير منطوق فهو يمثل حواراً استفزازياً للقارئ يحتم عليه التفكير والتأويل والتخيل والاستغراق في الانتباه لما حدث وسوف يحدث داخل النص الروائي.

ناهيك عن المسرح العادي وما يحدث على خشبة المسرح المترجمة للنص المسرحي، إذ يمتزج ذلك العرض، أزمنة للصمت، كإسدال الستار بين الفصول، والاكتفاء بالحركة والإشارة دون التلفظ، وهذا كله جزء صامت معبر يسهم في بناية النص، وهناك المسرح الصامت الذي يعد من أهم الأشكال التعبيرية التي يمكن الاستعانة بها من أجل تقديم فرجات درامية مثيرة تجذب المشاهد بطريقة إبداعية ساحرة. والمسرح الصَّامت أو ما يسمى بالميم أو البانتو ميم pantomime، وهو فن تصوير شخصيّة أو حالة معينة باستخدام الإيماءات وتعبيرات الوجه والحركات الجسمية (إبراهيم فتحي،1986، ص106) ، أو هو "فن الصَّمت" ، أو "التمثيل بلا كلام" (جون رسل

تايلر،1991، ص381) ؛ ولأنَّ البشر عادة يتواصلون بالوجوه والملابس والأثاث والإيماءات الاحتفالية منها والعفويةوالموسيقى وكلها تقوم بدور يعادل اللغة الكلامية، إذ إنَّ وظيفة التواصل ملازمة للممارسة الاجتماعية التامة، أكثر ما هي ماثلة في اللغة الكلامية وحدها(فوزي فهمي أحمد،1998، ص98).

فالصَّمت–إذن – في المسرح فلسفة ناطقة تعبِّر عمَّا هو داخليٌّ ومبطَّنٌ وهو لحظةُ انقطاع للحوار الخارجي بين الشخصيات ليبدأ حوارٌ داخليٌّ سواء أكان بين الشخصية أم بين بينها وبين المتلقي، فالصَّمت وإن كان لحظة انقطاع بين الشخصيات من جهة وبينها وبين المتلقي من جهةٍ أُخرى، إلّا أنها لحظة تواصل حقيقي داخل العمل الفني بين جميع الأطراف.

ز ـ الصمـت والسينمـا:

إن الناقد السنيمائي ـ غالبا ـ ما ينصب اهتمامه على السيناريو وعلى شكليات الشريط الصناعي مثل الصوت والصورة أو على أداء الممثلين أو قضايا الإنتاج ... غير أنه لا يلفت إلى لحظات الصمت في الشريط باعتبارها مكونا أساسيا للنص السردي المسموع. فالصمت في الحقيقة لغة عالمية تتنفس ضمن مشاهد الشريط الأساسية مخاطبةً المتلقي ليتفاعل معها، وقد يدفعه ذلك إلى بلوغ أعلى درجات الإشباع والشعور بالارتياح.

وكلنا يذكر السينما في بداياتها على الرغم من أنها كانت صامتة إلا إنها أدت دورها الإبلاغي للمتلقي.

من هنا فإن الصمت في الشريط يشكل مع الحوار الحيز الزمني للفيلم، فهو بذلك يحسب ضمن مدة الشريط في إطاره الكلي المكتمل، وهو يشبه في ذلك الصمت ضمن المقطوعة الموسيقية (كالبرعة والزفرة وغيرهما...) أو علامات الحذف الشعرية التي تسعى إلى خدمة الصورة الشعرية.

فالصمت له لغته الخاصة به، ومساحته المرتسمة على سطح النص الملفوظ، فهو موجود أو غير موجود فله دلالته وأسراره.

ح ـ الصمت في الاصطلاح:

أحببت ترك التعريف الاصطلاحي إلى الأخير كنتيجة لما سبق عرضه كاعتباره تعريفا إجرائيا، إذْلا يوجد تعريف اصطلاحي لمفهوم الصَّمت جامع مانع على مستوياته المتعددة، وإنما هناك تعريفات تقتصر على جانب واحد محدد، ومن ثمّ فمسألة إيجاد مصطلح للصمت وتعريفه بتعريف جامع مانع مسألة صعبة، ولكن من خلال ما تقدم من استعراض لهذا المفهوم نستطيع أنْ نقترح له تعريفاً يَلُمُّ أطرافه الواسعة بحسب رؤيتنا له، من غير أنْ ندعي أنّه تعريف جامع مانع.

الصمت فَقْدُ الخاطر بوجد حاضر، وقيل سقوط النطق بظهور الحق، وقيل: انقطاع اللسان عند ظهور العيان(المناوي، 1410هـ، 1990م،ص 219).

وهو كلُّ دلالةٍ أو معنى كانت من غير لفظ سواء أكانت سكوناً مطلقاً أم حركات وإشارات ورموزاً، أم كانت بلفظٍ أقل من المعنى أم بخلاف اللفظ أم بإشارة من اللفظ.

الصمت لغة ناطقة بصمتها، أي بمعنى أنَّ صمتها هو الذي أنطقها وأحضرها وأثبتها.

و الصمت يثبت حضوره باللغة نفسها، ولكن باختزالها عن طريق الحذف والإيجاز أو عن طريق إشارة من النص/الكلامإلى شيء آخر لم يُصرح به، وإنما سُكت عنه، والذي أبانه وأنطقه هو النص الأول كما في المجاز والكناية والمفهوم وغيرها.

وعلى هذا الأساس يكمن القول إن الصَّمت هو كلامٌ/ صوتٌ غائبٌ حاضرٌ، غائبٌ عن السَّماعِ، وحاضرٌ في النَّفسِ والفكرِ.

ثانيا ـ رصد الصمت عند عبد الله أبو هيفمن خلالخطابه القصصي:

تمثّل خطاب عبد الله أبو هيف في "هواجس غير منتهية" و هي مجموعة قصصية احتوت على تسع عشرة قصة توزعت على مائة وستة وثلاثين صفحة من الحجم المتوسط، باستثناء القصص السبعة التي كانت طوافًا وسفرًا إلى بلدان ومدن أخرى أو ما يسمى بـ" أدب الرحلات" فإن القصص الأخرى تناولت موضوعات اجتماعية بحثه أو اجتماعية سياسية، وهذه المجموعة بشكل خاص تنازعتها هواجس الكاتب، وتغلغلت لغة الصمت، وتكررت في منعطفات كثيرة من القصص.

فلا شك أن لظاهرة الصمت دلالة ليست اعتباطية عند أبو هيف، إذ نجد مفردة الصمت منذ القصة الأولى التي عَنْونَها بـ " الصمت" بيد أن الصمت كان بكل دلالته الحسية والرمزية بارزًا وحاضرًا في بقية القصص حتى في بعض قصص الرحلات.

نتوقف بداية عند العلامة اللغوية لعنوان المجموعة القصصية " هواجس غير منتهية" فهو عنوان لافت للانتباه ذلك أن مفرده (هاجس) تتضمن على المستوى النفسي ما يشير إلى أن ثمة قلقا مستمرًا صامتا تعاني منه شخصية ما، وهذا يعني أن الهاجس فعالية نفسية تتسم بالديمومة والانطواء المفضي إلى الصمت، وهذا القاص إمعانًا منه في تصوير وطأة الواقع الذي تكابده شخصياته يضيف إلى مفردة هواجس صفة " غير منتهية" لأن الهواجس التي تعانيها شخصياته لا تعرف نهاية، مهما كتب لها من النجاح في خاتمة حياتها، وإن العلامات اللغوية لنصوص المجموعة أيضا تفرز تلك السمة المميزة لعنوان المجموعة.

إذ يمكن ملاحظة ذلك في العنوانات الآتية الدالة على إكراهات الواقع الذي تعانيه الشخصيات كل ذلك في صمت تام، من هذه العنوانات " رحيل إلى البحر" لزكريا ثامر و" رأيت فيما يرى النائم" لنجيب محفوظ، فهذان العنوانان يضمران دلالة الصمت المنبعثة من رحيل البحر وغفوة النائم المثقل بجندل الصمت.

ولنذكر نماذج من حالات الصمت التي أوردها أبو هيف قبل تحليل دلالاتها الرمزية: في قصة " الصمت" التي استهل بها الكاتب مجموعته القصصية يبرز عنوان " الصمت" شامخا صامتا، والعنوان في العمل الأدبي بوصفه علامة لسانية، يحيل إلى مضمون النص ويكشف بنيته الدلالية، فيشكل بذلك نصا موازيا للنص (المتن) بتعبير " جيرار جينيت"، وهو تقليد يطرد في النصوص الأدبية بمختلف أنواعها وتجنيساتها.

يبدأ عبد الله أبو هيف قصته: (الصالة مكتظة بالكتب والأرجل البطيئة والوجوه اللائبة في مكتبة قليلة الإضاءة....)(أبو هيف، 2004، ص 7).

فالصالة التي كان يقصدها أبو هيف هي المكتبة، وهي دلالة أخرى على المكان المغلق الصامت، لا لغة إلا لغة عناوين الكتب المصفوفة على الرفوف الصامتة.

وأن يترصد عنوان " الصمت" المجموعة القصصية، وهو لفظة مجردة نجدها تسند إلى المحسوس عبر سلسة الأحداث المسرودة العائمة في ثنايا القصص المتلاحقة التي يقدمها أبو هيف من خلال مجموعته القصصية، فهذا يخلق نوعا من الإشكال يفضى إلى التأسيس لفعل القراءة، يدفع القارئ للبحث في العنوان محاولا فك شفرته اللغوية ما يخلق في العنوان دلالة عميقة تشتغل لصالح المؤلف الذي وضع من أجله، تدفع بالقارئ إلى استنطاق أسرار خطاب النص. إنما تتعدى دلالته هذا الأفق إلى داخل النص حيث يتعدى المعنى المعجمي إلى معان أكثر تشعبا وعمقا على طول المسار السردي، إذ نجده يشكل عنصرا أساسا ارتأى السارد أن يجعل منه نواة تنبني عليها النصوص المتتالية وتتنافى من خلالها دلالته.

فاستهل بصمت على صمت، صمت في المكان صمت في الأرجل، صمت في الوجوه، وصمت في الإضاءة، فعادة إضاءة المكتبة خافتة.

- (حضورا طاغيا لتلك الأحلام الصامتة أمام ضغوط العلاقة).
- (إن جسدي معزول وأنا معتادة على صمتي اليوم).
- (كان الصمت موحشا).
- (ولكنها للأسف تؤثر الصمت دائما).
- (تتسرب في بلاهة الصمت).

- (ساد الصمت ثانية).

في قصة " الخوف"(أبو هيف،2004، ص 14)

- (ثم تصمت قليلا وتضيف).

في قصة "حنو بالغ"(أبو هيف،2004، ص 30)

- (توقفت عن حركتها كأن خرسًا أصابها).

- (فصار الطفل يتعلم صمت جده وشرود نظراته).

في قصة "المحطة"(أبو هيف،2004، ص 41).

- (فلا تشهد المحطة عندئذ إلا الصمت).

في قصة " أمكنة كثيرة"(أبو هيف،2004، ص 44).

- (وثنايا العمارات المتناغمة في صمت جليل).

- (مشهد العمارات والبيوت الصامتة).

- (استمعت إليه صامتا).

- (عاودت الاستماع إليه صامتًا، ولا أرفع عيني عنه وعنها).

في قصة "أمكنة أخرى كثيرة"(أبو هيف،2004، ص 55).

- (نظراته حائرة، ولا تستقر على حال، وهي صامتة).

- (ظل صامتا معتقدا أنه لا يفكر بهذه المسائل إلا عندما تواجهه، وضغط عليه).

- (كانا يتلهفان للحديث إليه، ثم قلت مع الزمن الكلمات، وصاروا ثلاثتهم يقضون الساعة أو الساعتين في الصمت).

- (كانت الكلمات قليلة غالبًا ثم يغرق المكان في الصمت).

«الرؤية » في قصة «رأيت فيما يرى النائم لنجيب محفوظ»(أبو هيف،2004، ص 62).

- (وصمت، ولمحت الضيق الذي يلازمه).

في قصة " عند حافة الأفق"(أبو هيف،2004، ص 69).

- (أولعلها الرفقة التي جعلتنا نلتم على الكلام أو الصمت لا فرق).
- (صمت طويلا، ونظر في الكتاب الموضوع على الطاولة..).
- (ها أنا ذا أخرج من الصمت إلى الصمت في فراغ لامتناه).
- (كنت صامتا مثل الكثيرين تتناهى إلى سمعي جملة شاردة من هذا وعبارة مرتفعة من ذاك).
- (لا حديث بيننا، فقد قيل الكثير في القاعات المكيفة، حسنة الإضاءة والصوت، غير أننا آثرنا ذلك الصمت).

في قصة " عتمة غافية"(أبو هيف،2004، ص 84).

- (لربما كان طلب الصمت بحد ذاته مآثره هذه الاستراحة).
- (لو تعرفون كم هو غال علي هذا الصمت).
- (ينساب صوتها مع الصمت ونحن نغذ السير على أكوام أوراق ما زالت خضراء).
- (فلا يقطع الصمت إلا نجوى خافتة تهتز لها الصدور والأفئدة في رحاب هذه الغابة المتشابكة).
- (تجاذبنا طرفا من كلام ونبت الصمت على وجوهنا حفنة من مشاعر متكسرة على أطراف الكلام).
- (لو تعرفون كم هو غال علي هذا الصمت).

في قصة " رجال ونساء"(أبو هيف،2004، ص 91).

- (لفه الصمت ولسعه البرد الخفية).
- (أطرقت هي في الصمت مثله).
- (صمتت ثم تمتمت وكأنها تناجي نفسها).
- (وبعد لحظات صامتة تغوص في الجهامة والنفس المتقطع).
- (ولم يستطع تبيين كلماتها صمت وغاصت في النشيج).
- (ولربما أدرك كل من حولهما هذا الأمر الذي وقعا فيه بصمت لا ينفع الإنكار، ولا يفيد التصريح).

في قصة " من يذكر أم قيس؟" (أبو هيف،2004، ص 100).

- (ويصمت طويلا ثم تململ في جلسته، وغادر مقعده وهو يتمتم).
- (فينساب دمع غزير صامت على وجهها).

وفي قصة " هذا الوداع البشع"(أبو هيف،2004، ص 108).

- (كان فاقد الحركة والنطق والإحساس).
- (ولطالما جررته للحديث دون جدوى، حين يدخلني معه إلى مدار صمته).
- (صار إلى صمتٍ لا ترشح من وجهة علامة أو إشارة).

وفي قصة " قانون اللحظة الخاطفة"(أبو هيف،2004، ص 116).

- (لماذا وقفت في طريقي كنت صامتا أتملى ملامحها الدقيقة).
- (وكانت تغوص في الكلام، وكنت أغوص في الصمت).
- (أنهكنا الحوار، والآن ينهكنا الصمت، فيا له من وداع!).

وفي قصة " مراثي الوقت"(أبو هيف،2004، ص 125)

- (استطرد بعد صمت).
- (ثم غرقنا في الصمت).
- (كنت صامتا، وكانت صور مضيئة تبرق في غيوم داكنة).

بعملية إحصائية نجد لفظة "الصمت" أو مشتقاتها وردت في اثنين وخمسين موضعا من مساحة المجموعة القصصية " هواجس غير منتهية" باستثناء خمس قصص ذات العناوين التالية: « رحيل إلى البحر لزكريا ثامر»، « أجنحة صغيرة»، « مجرد لحظات»، « الاحتفال» و« مونولوغ ومونولوغ مضاد».

نهيك عن ذكر بعض المعاني كمفردات للصمت وهي كثيرة الورود، فقد تكرر في مفاصل القصص وتسرب وتداخل مع أحداثها (القصص) وهو يأتي بمواقف مختلفة، أحيانا تصمت الشخصيتان الرجل والمرأة، أو يصمت أحدهما، ففي قصة " هذا الوداع البشع" دليل على ما نقوله في هذا المقطع: "لم ينبس ببنت شفة نال منه الصمت

الحزين والجريح كل منال، فعزم دون رجعة على خيار العزل الاختياري، وكأنه يدغم في سبات اللحظة، على أنه قفز من سباته مفترقا عن عذابه إلى عذاب أشد"(أبو هيف،2004، ص 158).

في هذا المقطع لم يكتف بالصمت، فالتعابير الدالة عليه هي " لم ينبس ببنت شفة وخيار العزل الاختياري، وسبات اللحظة، قفز من سباته". فهذا يوحي إلى لغة الصمت ودلالاتها في السرد عند أبو هيف.

في الحقيقة التساؤلات تكاد لا تنقطع عن دلالات الصمت وطغيانه في نصوص هذه المجموعة، فعلى سبيل المثال، العجوزان اللذان يجلسان في الحديقة وصل بهما الأمر أن يقضيا وقتهما صامتين، حتى عندما مات أحدهما منع الآخر نفسه من الخروج والْتزم الصمت وجاءت العبارة " ولا يتكلم أبدًا(أبو هيف،2004، ص 58)،ويرى القاص أبو هيف أن في الصمت تفكرا وتأملا، ولهذا كان يفضله على الكلام، وهو شيء غالٍ بالنسبة له، لو تعرفون كم هو غالٍ عليَّ هذا الصمت" هذه العبارة تكررت مع القاص في موضعين غير بعيدين عن بعضهما البعض، فغلاوة هذا الصمت دفعته أن يعنون إحدى قصصه ب" الصمت" مفتتحا به مجموعته القصصية في صمت، ذلك الصمت الذي يمتد كخيط سميك من أول سطر لأول قصه إلى آخر سطر أويكاد للقصة الأخيرة، هذا الصمت الذي ارتسمت ملامحه في لوحات القصص، فكان عنصرا فاعلا لمكوناتها، وركنا أساسا من أركانها.فاحتل بذلك تبئيرا مميزا للهيكل العام للقصص، فهو يتنفس من خلال مساماتها.

ثالثا ـ نزوع أبو هيف إلى الصمت:

لماذا كان أبو هيف مصرًا على الصمت؟ ماذا أراد أن يبلغه للمتلقي من خلال مدارج الصمت المبثوثة في أغلب قصصه؟.

قد نجد إجابة لهذه التساؤلات علها تقنع المتلقي!.

فباستذكار ما تقدم من نماذج لحالات الصمت يمكننا الوصول إلى عدة أبعاد قصدها القاص عند استعماله الصمت كرمز أو دلالة، فالصمت كما سبقت الإشارة إليه في بحثنا يكون أبلغ من الكلام، لأن اللغة المشاعة قاصرة عن الوصول إلى الهدف المنشود.والصمت قد يكون احتجاجًا على موقف أو رفض، والصمت هو تعبير نفسي عن عدم القدرة على الفعل أو الانفعال الذي يدفع الإنسان إلى اللجوء إلى الوحدة والانعزال، فيكون هذا الصمت أكثر سحرًا من الكلام، ويكون أكثر نفاذًا إلى أعماق النفس، فقد يضيع الكلام الدهشة والقدرة على التأمل، على عكس الصمت الذي يبعث على التأمل، فيحلق مع الشعور إلى مدارج الحلم النبيل، الحلم الذي لا تكسره هشاشة الكلام ورتابة الحديث وثرثرته.

الصمت عند أبو هيف مقدس وهو غير متناهي الشعور، كما الشيء المقدس، الذي تمجده وأنت غير قادر على الإحاطة بحدوده، فليس اعتباطيا أن حمل مجموعة قصصه اسم " هواجس غير منتهية" والهواجس غير مرئية وغير مسموعة، فهي أشبه ما تكون بالصمت، هذا الصمت المحشو بطلاسم ذات رموز غير مفهومة في مجملها.

فقد كانت شخصيات القصص تتستر وراء حجب الصمت، لا تريد كشف وجهها الحقيقي، مفضلة الغرق في غيابات الصمت، منطوية على هواجسها نائمة فيها.

و في الأخير أراني دخلت هذا الموضوع في صمت علّني أحل بعض رموزه المشفرة، فإذا بي أخرج منه في صمت!.

خاتمــة:

في خاتمة بحثنا هذا نخلص إلى نتائج متمثلة في:

- الصمت أمر مقدس عند القاص أبو هيف.

- طغيان الصمت في أكثر قصصه، حتى احتل موقعا مميزا خاصا به.

- يمثل الصمت بؤرة من بؤر الخطاب التي تكون صورتها الظاهرة في اللفظ الممتلك لمضمونه الدلالي المتفق على مدلوله ضمنيا، أو بالأحرى فهو يمثل الوجه الثاني للملفوظ المختفي تحته.

- الصَّمت يمثل تواصلاً واستمراراً في الحوار غير المنطوق الذي يصحب الحوار المنطوق، وهذا اللامنطوق (الصَّمت) هو النص المختفي الذي يكشف ما لا يستطيع الحوار المنطوق أنْ يفصح عنه.

- يمكن اعتبار الصَّمت معادلا موضوعيا للنطق بوصفه لغة مجاورة للغة المنطوقة، وفي بعض الأحيان يكون أكثر إيحاءً ودلالة من النطق؛ لأنّه يعطي مساحة أوسع للتأويل والتأمل.

- يبقى الصمت من أهم المفاهيم أو البؤر التي تثير مشكلة إبداعية جدلية بوصفه ثيماً(theme) متعالية ببعديها الفلسفي والجمالي لا سيما إذا ما مثل قريناً جمالياً للمنجز الإبداعي ـ النص ـ بمستوياته الكتابية والسمعية.

- يبقى موضوع الصمت يستهوي كثير الدارسين والباحثين سواء في السرديات أو اللسانيات أو السيميائيات، لأجل استنطاق مدلولاته.

- أبو هيف سيج قصصه بالصمت من أول قصة إلى آخرها بل من أول كلمة متمثلة في العنوان إلى ما قبل الخاتمة بسطرين.

قائمة المراجع:

1 ـ أبو هيف، عبد الله (2004)، هواجس غير منتهية، ط1، مطبعة الأمل، دمشق.

2 ـ إبراهيم، فتحي(1986)،معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين، صفاقس، تونس.

3 ـ ابن الجزري، أبو الخير محمد، النشر في القراءات العشر (باب السكت على الساكن قبل الهمز وغيره).

4 ـ ابن منظور جمال الدين محمود بن مكرم(1997)، لسان العرب، دار بيروت، ط1 الأولى.

5 ـ ابن هشام الأنصاري، جمال الدين بن محمد(1423 هـ – 2002 م)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت وشرح عبد اللطيف محمد الخطيب، الكويت، ط الأولى، ج6.

6 ـ أبو سعيد عبد الكريم، التميمي(1981)، أدب الإملاء والاستملاء، دار الكتب العلمية، ط 1 ، بيروت.

7 ـ ابن عربي، محي الدين ، الفتوحات المكية، مكتبة الثقافة الدينية، ميدان العتبة، د. م. د. ت، ج 2.

8 ـ الباردي، محمد (2004)، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس،(فصل) الخطاب الواقعي الجديد.

9 ـ الأزهري، عبد الله بن أبي بكر (2000)،شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1.

10 ـ الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج 1.

11 ـ الجاحظ،عمرو بن بحر(1991)، الرسائل، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل، ط الأولى بيروت، رسالة المعاش والمعاد.

12 ـ الجرجاني، عبد القاهر (1389 هـ– 1969 م)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1 مكتبة القاهرة، مصر.

13 ـ الجوهري، إسماعيل بن حماد(1407هـ–1987م)، تاج اللغة وصحاح العربية،)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4.

14 ـ جون، رسل تايلور(1991)، الموسوعة المسرحية، تح: سمير عبد الرحيم الجلبي، دار المأمون للترجمة، بغداد.

15 ـ الخبو، محمد ، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الباب الأول: الخطاب السردي: مسألة الزمن القصصي، الفصل الثاني: سرعة السرد.

16 ـ الزبيدي، عبد الرزاق الحسيني (1987)، تاج العروس من جوهر القاموس،تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت.

17 ـ سيبويه، أبو بشر(1988)،الكتاب، تح: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3.

18 ـ المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف(1410، 1990)، ت: عبد الحميد حمدان، دار عالم الكتب، القاهرة.

29 ـ ناجي، سافرة (2011)، الصمت في الأدب المسرحي المعاصر" اللامعقول أنموذجا"، دار الينابيع، دمشق.

20 ـ الناصري، رياض محمد حبيب(1997)، قبسات من تجارب الأمم والشعوب، ج2، مطبعة أمير.

21 ـ فوزي، فهمي أحمد(1998)، المسرح وجسد الإنسان، مجلة فصول، مج: 13، عدد،4.

22- Catherine Ker brat, Orecchioni (1986), l'implicite (linguistique) Armand Colin, Paris.

23- Gérard Genette(1972), Figures III (Collection poétique), Ed seuil, Paris.

24- Pierre Van den, Heuvel (1985), parole, mot, silence, op, cit, chapitre II, compléments théoriques, librairie José corti.